اصغر الممالك

من تتبع حوادث الايام في هذه الازمان رأى عيون الاوربيين طامحة الى اعظم مملكة في الدنيا يريدون اغتنامها واقتسامها كما اقتسموا قارّة افريقية عن بكرة ابيها وفي قارتهم مملكة صغيرة لا يزيد سكانها على ثمانية آلاف نفس وهم غافلون عنها وغير مكترثين لها. وكذا العواصف تعبث بالفحم من الاشجار وبحجر منها صغير الكلّ

والمملكة التي نشير اليها جمهورية سان مارينو في جبال ايطاليا في الجهة الشمالية الشرقية منها مساحتها اثنان وثلاثون ميلاً مربعاً اي نحو عشرين الف فدان لا غير من الجبال الصخرية. وهي قديمة العهد من اقدم ممالك اوربا ان لم تكن اقدمها كلها نشأت في القرن الثالث للميلاد فقد قيل ان رجلاً حجّارًا او ناسكاً لجأ الى تلك الصخور في ذلك العهد هربًا من الاضطهاد الذي كان ثائرًا على النصارى وامتنع بها ولما حاول اصحابها اخذها منهُ اعتراهم مرضٌ وبيل فتركوها لهُ ملكاً حلالاً فاستقلّ الذين لجأوا اليها معهُ. وسنة ٨٨٥ ساعد اهلها البابا يوس الثاني توهبهم ثلاثة قصور صغيرة مبنية على ثلاثة شواهق. واعترفت الحكومة البابوية باستقلالهم سنة ١٦٣١ فبقوا عليهِ من غير منازع الى سنة ١٧٣٩ حين استولى الكردينال البروني على مدينتهم وضمّها الى المملكة البابوية وجمع اشرافهم في الكنيسة ليحلفوا يمين الطاعة للسدّة البابوية فابوا عليهِ ذلك وظلوا ثلاثة اشهر يتنازعهم اليأس والرجاء الى ان ردّ لهم استقلالهم بوساطة الملك لويس الخامس عشر

وبعد ستين سنة قام نبوليون الاوّل ودوّخ ايطاليا ودرى بهذه الجمهورية فاعجبهُ امرها وعرض على اصحابها توسيع نطاقها فابوا ذلك ولكنهُ لم يئسْ منهم بل كتب اليهم يعفيهم من كل ما فرضهُ على غيرهم من سكان ايطاليا وقدّم لهم اربعة مدافع وشيئاً من الحنطة اعترافاً منهُ بفضلهم في حفظهم استقلالهم هذه القرون الطوال

والبلاد جمهورية بالاسم وهي في الحقيقة مملكة صغيرة لها رئيسان ينتخبان كل نصف سنة ويجلسان على عرش الملك بابهة وعظمة وفيها مجلس نواب فيهِ ستون نائباً ثلثهم من الاعيان وثلثهم من اهل المدن وثلثهم من اصحاب الاملاك وكلما مات منهم واحد انتخب الباقون غيرهُ من طائفتهِ والنواب ينتخبون الرئيسين ويكون احدهما من الاعيان والآخر من العامة وفيها وزير للداخلية ووزير للخارجية ووزير للمالية وميزانيتها محكمة واهلها يحسنون من الضرائب اخفها ويأخذون جانباً من رسوم الجمرك الايطالية. وعندهم جيش منظم فيهِ ٩٥٠ جندياً اكثرهم في

رتبة امير الاي . وعندهم كثير من الشاب الشرف من رتبة دوق فنازلاً وهم يمنحونها لمن يطلبها من الاجانب ممن ينفقون عليهم وكذلك يمنحون الالقاب العسكرية . والظاهر ان القابهم ليست ارخص من القاب غيرهم من الدول العظيمة ولا ثمنها ينفق على غايات دنيئة فانهم منحوا احد الاميركيين لقباً منها لانهُ وهب مكتبتهم العمومية مئة جنيه سنوياً

وقد يستغرب القرَّاء ان بلاداً لا يزيد سكانها كلهم على ثمانية آلاف نفس يكون فيها مكتبة عمومية كما يستغربون تخصيص هذا المال لها ولكن احوال الاوربيين لا تقاس باحوالنا بعد ان هجرنا العلمُ وهجرناهُ فان في عاصمة هذه الجمهورية الصغيرة مكتبة فيها الآن احد عشر الف مجلد وقد لا تكون كلها من نخبة الكتب ولكن اهتمام اهلها بجمعها وحفظها يدلُّ دلالة قاطعة على ان لتهذيب العقول شأناً كبيراً عندهم . وليس عندهم مطبعة لكي لا يطبعوا كتب غيرهم فيعتدوا على حقهِ . ومن قوانينهم ان القاضي والطبيب يجب ان يكونا اجنبيين وتدفع اجرتهما من مال الحكومة

والبلاد جبلية صخرية كما تقدَّم وفي عاصمتها سان مارينو الف وستمئة نفس لا غير وهي معقل من المعاقل مبنية على قنَّة صخر شاهق ليس ابدع منهُ منظراً في المكونة فيها القصر الذي يقيم فيهِ رئيساها والمجلس الذي يجتمع فيهِ نوابها والمكتبة والكنيسة والسجن ودار البريد. وللحكومة ريح طائل من طوابع البريد لقلتها ولأن الغواة في جمع هذه الطوابع يدفعون ثمنها كما يدفعون ثمن اندر الطوابع من اعظم الممالك وقد سكَّت مرةً بعض النقود فصار الغواة يجمعونها ويغالون بها واهلها يستعملون الآن النقود الايطالية

والسلطة في يد مجلس النواب فهو يسنُّ القوانين وهو ينفذها . ومن شرائعهم منع المقامرة بكل انواعها . وقد اقترح عليهم كبار المقامرين ان ينشئوا عندهم مكاناً للمقامرة كما انشأوا في مونت كارلو ووعدوهم بربح طائل من ذلك فابوا مع حاجتهم الى المال وهذا من خير ما فعلوهُ . ومن قوانينهم ان من حلَّف على اسم الله تعالى او اسم العذراء المباركة او اسم مؤسس الجمهورية يحبس من شهر الى ثلاثة اشهر . ومن كتب او تكلم بشيء يظهر فيهِ استخفافهُ بحل مجلس النوَّاب يسجن عشر سنوات بالاشغال الشاقة . ولا يجوز لاحد ان يزرع التبغ او يقتني المعزى او يشوِّر سور المدينة الاَّ برخصة خاصة

ولا ندري هل تترك دولة ايطاليا هذه الجمهورية على استقلالها او تنزعهُ منها وتضمُّها اليها لاسيما بعد ان بحثت في امرها حديثاً والغت عهدة الحماية التي عقدتها معها سنة ١٨٧٢ ومن المرجح انها اذا حاولت ذلك قاومها رجال الجمهورية بكل طاقتهم لانهم يفتدون حريتهم بكل مرتخص وغالٍ